﴿ الباب الاول ﴾

(أدب الاعتقادات)

مبنى الاسلام على التوحيد ـ توحيد العرب قبل الاسلام ـ دلائل الكون المنصوبة للعقل الدالة على الصانع ـ الايمان بالرسل والملائكة ـ الايمان بما بعد الموت ـ تفصيل مجمل ـ نظام العالم دليل الصانع ـ نظرية حدوث العالم ـ هو الاول والآخر ـ تعالى ان يكون جوهراً متحيزا ـ نفى الجسمية والعرضية ـ نفى الاختصاص بجهة ـ معنى الاستواء على العرش ـ الرؤية ـ المعية ـ الصفات ـ القدرة ـ العلم ـ الحياة ـ الارادة ـ السمع والبصر ـ الكلام ـ قدم الصفات ـ افعال الله تعالى ـ الجزء الكسبي الاختيارى فى الانسان ـ نظرية تكليف ما لا يطاق ـ نظرية ايلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ـ معرفة الله واجبة بايجاب الله ـ بعثة الرسل ـ بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ـ الحشر والنشر ـ سؤال الملكين ـ عذاب القبر ـ الميزان والصراط حق ـ الجنة والنار حق .

مبنى عقيدتنا معشر أهل الاسلام على التوحيد الخالص لله تعالى والقيام بتأدية العبادة له عز وجل لانه المستحق بالحق للعبادة . ومدار القرآن المجيد كله في العقائد إنما يدور على هذا القطب وتقرير الحاجة عنه بالتى هى أحسن قال تعالى « إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو » « إنما الله اله واحد سبحانه »

« قل هو الله احد الله الصمد » « الله لا إله الا هو الحي القيوم وقال تعالى في عبادته وحده « وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً » « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » وقال سبحانه وتعالى في النهى عن الشرك والحاجة عن الوحدانية « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » « ولا تدع مع الله الها آخر » « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » « لو أن فيهما آلهة الا الله لفسدتا » « قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذن لابتغوا الى ذى العرش سبيلا » الى غير ذلك من الآيات الباهرات في الدلالة على وحدانية الله تعالى ووجوب افراده بالعبادة مصداقا لقوله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » مما كان متحرى الاديان السماوية قبل ديننا والرسل الكرام في دعوتهم قبل رسولنا صلى الله عليه وعليهم وسلم كما قال تعالى مبيناً لذلك شرع « لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » « وما أرسلنا قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون »

ولقد كان التوحيد شائعاً في شبه جزيرة العرب قبل الاسلام منذ عهد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام غير أنه على تمادى الدهور دخلت عليهم الاحداث وعبادة الاصنام فكانوا كما وصفهم الله تعالى في القرآن المجيد « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » فجاء الاسلام ماحياً لما كانوا عليه مجدداً للتوحيد على أكمل الوجوه وأشرف المبادي . ناسخاً ما تقدمه من الاحداث والتغييرات التي شابت الدين الخالص بعد الرسل واضعاً مع ذلك عن الامم والشعوب كثيراً من الآصار وأغلال التكاليف التي وضعتها في أعناقهم التقاليد التي جروا عليها ولا غرو فالاسلام هو بالحق دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها وفي القرآن المجيد « ان الدين عند الله الاسلام » « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه »

ودلائل الوحدانية واثبات الصانع تعالى المنصوبة للعقل في عالم الحس والمشاهدة من الطبيعة بحذافيرها قد نص عليها هذا القرآن المجيد الذى يهدى للتى هى أقوم قال تعالى « الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فاخرج به

من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها »

وقال في خلق الانسان وتدرجه فى نشأته « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ، هو الذى يحي ويميت فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون »

وقال في الارض والجبال والليل والنهار وما أشبه ذلك « الم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً »

وقال في آية أخرى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد

موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون »

والآيات في القرآن المجيد على هذا النمط من التنبيه على عظمة الخالق تعالى والتنويه بتفرده بالخلق والانشاء والابداع واسباغ النعم على الخلق أكثر من أن تحصى ولله ما أجل وأفخم تلك الدلائل الكونية العظيمة منها والدقيقة المنصوبة للعقل البشري والتي يصادفها الانسان أني تأمل وحيثما أجال نظره شاهدة ناطقة بتفرد الله تعالى بصفات الجلال والكمال والقدرة العظيمة حتى لقد صرخ ذلك العربي القح إذ سئل ما الدليل على وجود الصانع تعالى فقال « ان البعرة لتدل على البعير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدل على صانعها القدير ! »

وقال تعالى أيضاً مما يشبه ما سلف ويجب على كل مسلم تدبره وتعقله كله واستخدام وسائل العلوم الكونية لاستكناه أسراره العجيبة لانه هو وأمثاله الكثيرة الموضعة بطن كتابنا العزيز مطلوب لنا دينياً فضلا عن نفعه وثمرته دنيويا « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش

وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون»

وجاء في آية أخرى « ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون »

فترى من هذه الآيات الجليلة وأمثالها الكثيرة في القرآن المجيد ما يبرهن اجل برهنة على وجود الخالق العظيم ووحدانيته تعالى وجميل صنعه وتصرفه في خلقه بالتدبير المحكم وان للعقل الذى وهبنا إياه وتعبدنا به حقه لان يستخدم ويستعمل ثمّ [1] وعندى أن هذا الضرب من العلم أجل وأشرف العلوم التي يجب أن يعتمد عليها في المدارس الاسلامية الدينية بمقدار ما يذلل من صعاب تلك العلوم الفقهية واللغوية التي ينبغى أن يجرى فيها بما يناسب الزمان وأذواقه تصنيفاً وتعليماً بهذا يأخذ العقل والفكر الاسلامي قسطه من الانطلاق المطلوب له في الآيات القرآنية الأنفة الذكر وأن لا يحجر عليه ذلك الحجر الذى أوجدته التقاليد

---

(١) قال الشافعي رحمه الله في رسالة الفقه الاكبر « اول الواجبات على المكلف النظر والاستدلال الى معرفة الله تعالى ومعنى النظر هو فكر القلب والتأمل في حال المنظور فيه طلباً لمعرفته وبه يتوصل الى معرفة ما غاب عن الحس بالضرورة وهو واجب في أحوال الدين لقوله تعالى انظروا الى ثمره اذا أثمر وقوله فاعتبروا يا أولى الابصار وقل انظروا ماذا في السموات والارض ثم استطرد فيما يرمى اليه من النظر في العالم ذلك الاسم الجامع لما سوى الله تعالى من خلقه اه مؤلف

المسالمة بين متن وشرح وحاشية وتقرير وما أردأها من أساليب صعبة لا توافق مناهج العصر ولا ما تقتضيه أحواله الارتقائية الا اذا رضينا بالقعود والاخلاد الى أرض الانحطاط والتقهقر الذى يبرأ منه ديننا ويجب نفض غباره عن أنفسنا وسيأتي في آخر هذا الكتاب كيف يتطلب أدب النفس مع الباري تعالى اطلاق الفكر والتفكر والتدبر في مصنوعات الله تعالى للتقوّى في الدين والدنيا مما لا يتوصل اليه الا باستخدام العلوم الطبيعية والاجتماعية الادبية

وبعد الايمان بالله سبحانه وتعالى والاقرار له بالوحدانية والتصرف والقضاء بالتدبير الجميل في الخلق وعدم الاشراك به تعالى ينبغي الايمان بالرسل رسل الله والملائكة الكرام والكتب السماوية كما نص عليه تعالى في محكم هذه الآيات « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير »

ولما كانت الدنيا ليست بالدار ذات الخلد والقرار بل هي كما جاء في الحديث الشريف مزرعة الآخرة تلك الدار الباقية

حيث الحياة الابدية حيث السعادة السرمدية والنعيم المقيم ، حيث الحياة بأشرف كمالاتها ومعانيها . كما يقول به ويعتقده الكثير من بني البشر خصوصاً أصحاب الاديان السماوية والاسلام في مقدمتها كما نطقت به آيات القرآن الكثيرة فلهذا وجب الايمان فيه والاعتقاد بما بعد الموت من الجنة والنار والحشر والنشر ، فالجنة للمؤمنين بالله ورسله العاملين بما أمروا به وكلفوه في هذه الدار من الاعمال الصالحة والتكاليف الواجبة ، والنار مثوى للكافرين العاصين المخالفين لأوامره ، وان هناك حساباً وميزاناً يحاسب العبد بهما (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) والآيات في القرآن الكريم والاحاديث في هذا كثيرة ولتفصيل هذا الاجمال أقول

كل امرئ عاقل أنار الله بصيرته وجلا صدأ فكره وثقف بالعلم الصحيح لبه لا يفوته عند التأمل الدقيق والتدبر الحسن في نظام هذا العالم وعجائب الصنع في الكون المكشوف للقلوب والبصائر كما هو مكشوف للأعين والابصار فيما حوى من سموات وأرضين وحيوان ونبات ومعدن وشعوب مختلفة وقبائل انسانية متباينة على ظهر كرتنا هذه الارضية الحقيرة

التي هي بالنسبة الى الكون أو ملكوت الله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كحلقة ملقاة في فلاة » ان هذا «الخلق» العجيب والصنع الجميل لا بد له من خالق عظيم وصانع حكيم صنعه وهو يدبره أحسن التدبير ، وهذا الصانع الكريم في اعتقاد أهل الاسلام هو «الله» سبحانه وتعالى فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة وقد دل على نفسه بنفسه وأنبأ عن ذاته وصفاته بالنظر الينا معاشر المسلمين في القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم نبي الاسلام والذي أرسله رحمة للعالمين فضلا عما سلف في نبوة الانبياء والكتب الماضية وعما غرسه تعالى في الفطر الانسانية السليمة [1] لترى الدلائل المنصوبة في العالم نفسه وان هذا العالم « حادث » يرجع الى «محدث» لعدم الاستغناء عنه و برهان حدوث العالم أن أجزاء هذا العالم إما متحركة أو غير متحركة والحركة والسكون قد يعلم بالبداهة حدوثهما كما يعلم كذلك أن ما لا يخلو من الحوادث

---

(١) كان للامم الحكيمة القديمة كاليونان ونحوهم هدايتها في معرفة الصانع تعالى بطريق الرياضة العقلية . راجع رسالة الفوز الاصغر لابن مسكوية ونحوها .

فهو مثلهما في الحدوث فالعالم اذن حادث ومحدثه بالاتفاق عند أهل الاديان السموية ومن نحا نحوهم هو الله تعالى كما قال تعالى مشيراً الى ذلك من اعترافهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله)

واذا كان هذا العالم العظيم الصنع حادثاً فلا ريب أن الله محدثه تعالى قديم أزلي لا بداية له . وبرهانه انه لو كان حادثاً لاحتاج الى محدث واحتاج محدثه الى محدث وهلم جراً وما تسلسل من الحوادث فلا بد من الانتهاء به الى محدث قديم هو الاول ، في الحديث الشريف (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق في عرفوني) فالله تعالى قديم لا بداية له وما حوادث الكون في تسلسلها وارتباطاتها مهما عظم قدمها ومهما قيل في كيفية خلقها الا وتنتهي الى مبدعها الاول الله الذي أنشأ النشأة الاولى واليه ترجع النشأة الآخرة لان ما وصف بالقدم المطلق استحال عليه العدم البتة فالله سبحانه كما لا أول له فهو كذلك لا آخر له بل هو تعالى كما وصف نفسه في الكتاب العزيز (الاول والآخر والظاهر والباطن) تفنى الحوادث والعوالم وهو باق أزلياً سرمدياً تقدس في علاه

وهو تعالى ليس بجوهر متحيز لان الجواهر المتحيزة كما قال جماعة المتكلمين مختصة باحيازها ولا تخلو من أن تكون ساكنة فيها او متحركة عنها وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، ولو تصور متحيز قديم لتصور في المثل قدم جواهر العالم على ان من سماه تعالى جوهراً ولم يرد به الجوهر المتحيز لا يكون مخطئاً الا من حيث اللفظ دون المعنى

واذا كان الله سبحانه وتعالى ليس بجوهر متحيز فمنه يعلم بالضرورة انه ليس « بجسم » لان الجسم مؤلف من جواهر متركبة وما كان مركباً احتاج الى حيز والى اجزاء قابلة للافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه كلها من صفات الحدوث في المخلوقين فصانع العالم اذن ليس بجسم

واذا كان تعالى ليس بجسم فيكون بالاولى ليس بعرض حال في جسم كذلك لانه اذا كانت الاجسام محدثة لما تقدم من تركبها وافتقارها الى الاحياز فالاعراض القائمة بها يعلم بالضرورة حدوثها بل هي أحرى بان توصف بصفة الحدوث من الاجسام القائمة هي بها والله تعالى خالق الاجسام والاعراض ومبدع دقائقها ورقائقها من المركبات والبسائط

واليه تعالى مرجع القوة فيها جميعاً ما ظهر منها وما بطن

ثم انه تعالى منزه الذات عن الاختصاص بجهة من الجهات لان الجهة إما فوق واما تحت واما عن اليمين واما عن اليسار واما أمام واما خلف والجهات محدثة مخلوقة بواسطة خلق الانسان بكيفية ان له طرفين يعتمد باحدهما على الارض التي تقله وهما رجلاه والطرف الاخر يقابله وهو الرأس فاحدث الانسان اسم الفوق لما يلي ناحية رأسه وخصص اسم التحت لما يلي قدميه الى آخر ما اصطلح عليه في ذلك وبهذا الاصطلاح يكون مثلا اهل نصف الكرة الارضية التي تقابلنا مسمين أبداً فوقاً ما نسميه نحن تحتاً وكذلك يخالفوننا في تعيين الجهات الاربع بحسب الاوضاع . فمن ثم نعلم حدوث الجهة وتعيينها اصطلاحا وما كان كذلك فالله تعالى منزه أن يتخصص بناحية منه ولو كان الانسان خلق مستديراً كرى الشكل لما كان لهذه المسميات وجود البتة بالنظر اليه كالكرة الارضية وكالكواكب السابحة في فضاء الله العظيم من السموات . فالجهة محدثة بهذا الاصطلاح والله تعالى ارفع من أن يختص بجهة حادثة اصطلح عليها محدث بالتعيين والتخصيص والله تعالى يقول

« فأين ما تكونوا فثمّ وجه الله » بالمعنى المقصود له تعالى من القرب والتقريب الى العباد على ان ما جاء في أدب الاسلام من رفع الايدي في الدعاء الى السماء فهو أبداً للتعظيم والرفعة ولان الله تعالى فوق عباده بالسلطان والعظمة ولان السماء المكشوفة لسكان الارض الضعفاء مشهد من مشاهد ملكوت الله تعالى مصدر الرحمات والفيوضات العظيمة . أما تولية الوجوه في الصلاة شطر الكعبة بيت الله الحرام ، بيت الخليل ابراهيم عليه السلام فللتقريب والتسهيل في التعيين أيضاً ولان الكعبة « أول بيت وضع للناس مباركا » فاختارها النبي صلى الله عليه وسلم قبلةً له وارضى الله بها عباده المسلمين

أما مسئلة الاستواء على « العرش » التي نص عليها الكتاب المجيد « الرحمن على العرش استوى » فليس المراد بها كما قال أجلة علماء السلف وبالمعنى الذي اراده الله تعالى انه استواء استقرار وتمكن يلزم منه الجسمية لذات الله تقدس وتنزه في علاه لانه محال وانما هو استواء قهر واستيلاء كالمفهوم من قوله تعالى في آية الكرسي « وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم »

ورؤية الله تعالى في الدنيا غير معقول بها لقوله تلك « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » وقوله تعالى في خطاب موسى عليه الصلاة والسلام « لن تراني » وان كانت الرؤية جائزة عقلا بغير تعيين جهة او صورة لانه اذا كان تعالى ليس مختصاً بجهة فبالضرورة جازت الرؤية عقلا كذلك من غير كيفية ولا صورة او جهة . أما مسئلة المعية بحق الخلق « وهو معكم أينما كنتم » فتعتقد اسلامياً مع نفي الاينية الجسمية او الحلول بحقه تعالى لان قربه تعالى ليس كقرب الاجسام قال الشيخ محمد المغربي الصوفي الشاذلي هذه الحكمة العالية في المعية قال « معيته تعالى أزلية ليس لها ابتداء وكانت الاشياء كلها ثابتة في علمه أزلا يقيناً بلا بداية لانها متعلقة به تعلقاً يستحيل عليه العدم لاستحالة وجود علمه الواجب وجوده بغير معلوم واستحالة طريان تعلقه بها لما يلزم عليه من حدوث علمه تعالى بعد ان لم يكن. وكما ان معيته أزلية كذلك هي أبدية ليس لها انتهاء فهو تعالى معها بعد حدوثها من العدم عيناً على وفق ما في العلم يقيناً وهكذا يكون الحال أينما كانت في عوالم بساطتها وتركيبها واضافتها وتجريدها من الأزل الى ما لا نهاية له »

هذه هي أمهات الباب في أدب الاعتقاد بالنسبة الى ذات الله تعالى القدسية من الوجود والوحدانية والقدم والبقاء ومخالفة الحوادث جملة أما ادب الاعتقاد الاسلامي بالنظر الى الصفات صفات الله تعالى القدسية فأولها الاعتقاد « بالقدرة » للصانع العظيم والمدبر الحكيم، وهذه الصفة من القادر والقدير والخالق والمبدع والمنشي والمعيد الخ كلها طافح بها القرآن المجيد وبرهان القدرة قدرة الله تعالى العظيمة من العقل ان العالم محكم الصنع متقن النظام لان من رأى حديقة منسقة الغراس مرتبة الشجر منظمة المسالك وتوهم صدورها من غير ناظور (بستاني) ماهر حاذق في فنه وبعبارة أخرى من غير قادر على ترتيبه ذلك بمهارة وعقل كان منخلعاً عن غريزة العقل نفسه منخرطاً في سلك اهل الجهل والغباوة

ثم الاعتقاد « بالعلم » علم الله واحاطته تعالى بجميع المخلوقات علماً فلا يعزب عن علمه تعالى مثقال ذرة في الارض ولا في السماء والقرآن كله ناطق بان الله عز وجل محيط بجميع المعلومات لا يعزب عن علمه شيء دق أو جل خفي أو ظهر لا في الارض ولا في السموات العلى فالله بكل شيء عليم ولقد جاء من بين

الآيات القرآنية الكثيرة في علم الله هذه الآية على طريقة الاستفهام التعجبي استهزاء بقول بعض الجاحدين « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » وفي الآية الارشاد الى الاستدلال بالخلق على علم الله تعالى إذ لا ريب في دلالة الخلق اللطيف والصنع المتقن المزين بالترتيب ولو في الشيء الحقير الضعيف على عظيم علم الصانع بكيفية الترتيب والاتقان والاحاطة بكل شيء .

وفي كل من صفة القدرة والعلم ما يدل بالضرورة على صفة « الحياة » له تعالى لانه لا يتصور صدور القدرة والعلم والخلق والابداع عن غير حي كما لا يتصور مثلا من انسان أنه قادر وعالم وفاعل بلا حياة وهو مالا يقول به عاقل أو يتصور في عقل انسان

« الارادة » من صفات الله تعالى فهو « المبدئ المعيد الفعال لما يريد » فلا موجود الا وهو موجود بمشيئته وارادته وحكمته وكيف لا يكون مريداً مختاراً وكل فعل يصدر منه تعالى أمكن ان يصدر منه ضده وما لا ضد له أمكن ان يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده والقدرة صالحة للضدين والوقتين

فلا بد من الارادة الصارفة الى أحد المقدورين ولو أغنى العلم عن الارادة في تخصيص المعلوم حتى يقال انما وجد في الوقت الذي سبق العلم بوجوده لجاز ان يغني عن القدرة لانه يقال وجد بغير قدرة لسبق العلم به وليست ارادة الله في السنن الكونيه بالتي هي كالتي للخلق من حيث انفاذ امر والعدول عنه إذ ذلك محال بحق الله تعالى واجب الوجود لان هذا من توابع حاجات البشر ونقصهم في العلم عن الكمال فتتغير الارادات بحسب ذلك من البواعث .

« السمع والبصر » من صفات الله تعالى التي وصف بهما سبحانه وتعالى نفسه في الكتاب العزيز في آيات كثيرة « انني معكما اسمع وأرى » « وكان الله سميعاً بصيراً » « ليس كمثله شئ وهو السميع البصير » فالله تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يشذ عن سمعه دبيب أصغر الميكروبات التي لا تراها أعين الآدميين فضلاً عن سماع حركاتها في غدواتها وروحاتها ، واذا كان من كمال الخلق السمع والبصر فكيف لا تكون صفة هذا الكمال للخالق العظيم تعالى على ما يناسب كماله بلا جارحة ولا أعضاء .

ومن الصفات الواجب اعتقادها بحق الرب تعالى « الكلام » وهي صفة قائمة بذاته العلية لا تكون بصوت ولا بحرف وبرهان كلام الله تعالى ظاهر من الوحي الى الانبياء وخطابهم بلا رؤية مصداقاً للآية الشريفة « ما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء » وبرهان الكلام على تلك الصورة « وكلم الله موسى تكليماً » « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه » « فأوحي الى عبده ما أوحى » ولا يشبه كلام الله تعالى بهذا المعنى كلام المخلوقين كما لا يشبه وجوده وجود غيره والكلام بالحقيقة كلام النفس وما قطعت الاصوات والحروف بحق المخلوقين الا لضبط الكلام بحسب الاصطلاحات وسهولة الدلالات كما قد يدل عليه بالاشارات والحركات .

وكل من الكلام القائم بالذات وجميع الصفات التي سبقت لله تعالى قديمة كذاته تعالى لانه يستحيل ان يكون محلاً للحوادث لما تقدم من ان محل الحوادث حادث بل هو تعالى لم يزل في قدمه تعالى موصوفاً بمحاسن الصفات ولن يزال في أبده منعوتاً بنعوت القدم والجلال منزهاً عن تغير الحالات وكذا علمه تعالى

قديم فانه لم يزل عالمًا بذاته وصفاته وما يحدثه في مخلوقاته بالعلم الازلي والقدرة الازلية والارادة أي المشيئة الازليـة المتعلقة باحداث الحوادث وفق سبق علمه الازلي بها .

***

واذ قد انتهيت من بحث الصفات فلأنتقل الى أدب ما يجب اعتقاده في الاسـلام بخصوص أفعال الله تعالى فاعلم يا هداك الله أن كل ما يحدث في العالم عالم الكائنات فهو فعله تعالى وخلقه واختراعه لا خالق له سواه ولا محدث في الحقيقة الا اياه وكذا القدرة التي للعباد مخلوقة له تعالى وكذا حركاتهم وسكناتهم متعلقة بقدرته كما قيل « الحركة والسكون بيد الله » وفي الآيات القرآنية برهان هذا ومصداق أمره قال تعالى « الله خالق كل شيءٍ » وقال جـل شأنه « والله خلقكم وما تعملون » ومن هنا تعلم ان انفراد الله تعالى بخلق حركات العباد لا يخرج ما لهم من «عمل» أو ما يجب اعتقاده منه فيهم لدلالة الآيات القرآنيـة الكثيرة عليه وان فينا ذلك « الجزء الكسبي الاختياري » الواقع في افعالنا وارادتنا الذي وقعت عليـه التكاليف والذي خوطب البشر وادينوا به وجوزوا عليه الجزاء

الحق بمقتضى الشرائع من تعبدية وتعاملية كما وعدوا عليه الجزاء الاخروي ، وهذا الجزء الاختياري في افعالنا عظيم مبناه على العقل البشري المستمد نوره من نور الله ومصداقه من القرآن كثير فهو من جهة خلق للرب ومن جهة اخري كسب أي فعل للعبد وتفرد الله بعلم ما هو كائن له منه فقدرة العبد خلق للرب كسب للعبد وكذا الحركة والاختيار الواقعان منه وأنت إذا تأملت هذا جيداً تر أن الاسلام أو بعبارة اخرى الميداء السني منه قد كمل أدبه بهذا الاعتقاد وأعتدل قوله وخلص مبدؤه بالنظر الى أفعال البشر فلم يدخل في « الجبر » المحض كما قال به « الجبرية » القدماء ومن اهل الاسلام ايضاً كما لم يقل بمبادئ « المعتزلة » القدرية أولئك الفلاسفة الاسلاميين الذاهبين الى أن البشر إنما هم الذين يحدثون أفعالهم وارادتهم وليس لله فيها من أثر البتة فمن ثم وقف المبدأ السني بين بين حتى يخرج من شناعة أهل الجبر فيما ذهبوا اليه وجرأة الفلاسفة الاعتزاليين فيما تجرأوا به على الله تعالى ويوفق بين الآيات الدالة على تصريف الله في عباده بما شاء وشاء مبدأ الخلق له تعالى وفق العلم الازلي وأمر التكليف في الاعتقادات والعبادات

والشرائع وتزكية النفوس والجزاء بالثواب والعقاب الاخرويين خصوصاً في مقابل الطاعات وفي مقابل الذنوب .(١)

فعمل العبد على مقتضى هذا المبدأ السني المعتدل وان كان كسباً للعبد الا أنه في الحقيقة لا يخرج عن كونه بقضاء الله تعالى وسابقاً في علمه تعالى للجزم في العقيدة عقيدة أهل السنة والجماعة بأن ما يجرى في الملك والملكوت إنما هو بقضاء الله وقدره وعلمه فمنه تعالى الخير ومنه تعالى الشر ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو معنى دقيق طالما زلت فيه أفهام وحارت عقول على ان الآيات ناطقة به صريحاً فما عصى عاص ولا اهتدى مهتد الا بتوفيق الله تعالى وهدايته وسابق علمه فيه وان كانت سبل الهداية قد بينت من قبله تعالى للجزاء عليها بحق المهتدين كما بينت طرق الغواية والشرور لتجنبها بحق الضالين ولله تعالى في خلقه شؤون وتصاريف تعجز عن كنهها عقول القاصرين مع ان هنالك آيات ناطقة به « ولو شاء ربك لهدى الناس جميعاً » « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة »

---

(١) حكى في الصدد الامام ابن تيمية اقوالا نفيسة في رسالة شرح حديث أبي ذر كما فصلها غيره من الائمة أيضاً أحسن تفصيل اه مؤلف

obeikandi.com

بيدانه مهما كان من هذا المبدأ الاعتقادي فليس للانسان وهو المكلف في حد ذاته إلا أن يعمل لما فيه الخير ليوافق مراد الله تعالى لعباده منه كما نطقت به آيات اخر قال تعالى « قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها » (عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « فاستبقوا الخيرات »

وقال تعالى في خطاب المؤمنين لملازمة التقوى « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم » ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » وآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب)وقال تعالى (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) وقال تعالى في آية اخرى فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فقد وقع اجره على الله) والآيات في المعنى كثيرة .

ومن كمال الادب في الاعتقادات الاسلامية السنية أن يعتقد أن الله تعالى كما قد تفضل بالخلق وتفرد بالانشاء تطول كذلك بتكليف العباد وتعريفهم طريق هدايته ولم يكن الخلق ولا التكليف واجباً عليه البتة كما ذهب اليه المعتزلة

وانما وجه للسابق في علمه الازلي وحكمته العظيمة ومشيئته الكريمة وانه يجوز لعموم التكليف الذي تفضل به تعالى لمصلحة العباد انفسهم أن يكلف العباد مالا يطيقون وبعبارة اخرى مالا حظ لهم من توفيقه وهدايته لهم فيه للسابق في علمه تعالى بحق بعضهم ولنا برهان ذلك في ابلاغ رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن أبا جهل لا يصدقه ولا يؤمن به ثم أمره إياه بان يأمر أن يصدقه ويؤمن بالله العظيم . وليس هذا في شئ من معنى الآية الحكيمة القرآنية (لا يكلف الله نفساً الا وسعها)

ومن تمام هذا الادب في الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة اعتقاد جواز أن لله تعالى إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ولا ثواب لاحق لانه متصرف في ملكه ولا يعد المتصرف في ملكه ظالما كما شاغب به المعتزلة في مقولاتهم. هذا هو مبدأ (الجواز) الواجب التسليم به اعتقاديا غير أن لله تعالى في مقابله مع ذلك الرحمة غير المتناهية كما قد نطقت به الآيات ودلت عليه الآثار بل أرشد اليه العقل السليم لان أفعال الله كلها مبنية على الحكمة التي تقصر دونها عقولنا وعلى

العدل والرحمة فهو تعالى لم يتفضل بالخلق عبثاً ولا كلفهم من التكاليف بحسب المقصود بها هنا فوق طاقتهم ووعد بالثواب على الحسنات العملية أضعافاً مضاعفة وتوعد بالعقاب (وجزاء سيئة سيئة مثلها)

وهو تعالى مع ما غرز في عقولنا وأمرنا به من العمل لمصلحتنا بمعونته وتوفيقه في حياتنا أثاب على ماقد نبتلى به من المحن والآفات والامراض وأرشد العقول وهدى الفهوم الى الوسائط العلمية والعملية لدرئها وازالتها مع التزام (الصبر) والتدرع بالاناة والاطاعة لامره وحكمته وقضائه وقدره في الاحوال السيئة حسياً ومعنوياً بلا تسخط ولا تضجر حتى لا يحبط أجرنا وننال الثواب العظيم ثواب « الصبر » وجزاء الذي بشر به في قوله تعالى « وبشر الصابرين » ولهذا المبحث بقية سترد في آخر هذه الرسالة

والقرآن المجيد والسنة البيضاء كلها ملأى بهذا وأمثاله الكثيرة فالله تعالى لا يضيع عمل عامل ولا جزاء صابر ولا يخل بمعونة المستعين به على الخير اللاجئ الى بابه المستروح بامداده ولتمام الرحمة الصمدانية جعل أن لا يعذب الا بعد البلاغ وقيام

الرسالة ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، كما قد قيد الاهلاك وازالة الامم بالتزام الفساد والاسراف في الامور أو عدم الصلاح للخلافة الارضية (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) و(ما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون)

ومعرفة الله تعالى واجبة بايجاب الله تعالى وشرعه وبالعقل فيما يقتضي الاستدلال المنصوص عنه شرعاً لا بالعقل فقط كما هو مذهب المعتزلة لان العقل وحده لا يؤدى الى التصديق بالله وبشرائعه بمفرده وأنت بأدنى تأمل في احوال الامم واختلافها في التقاليد والمعتقدات ترأن العقل لا يؤدى في الغالب الا الى السبل المتفرقة وان عرف الصانع فمن ثمّ بعث الله تعالى النبيين والمرسلين مبشرين ومنذرين للحكمة البالغة وسبق العلم الازلى بان لا صلاح للعالم الا بهذا ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ومع اختلاف الشرائع وطرق تأدية العبادة التي جاء بها الرسل ونحوها فان مبدأ الاعتقاد الذى أتي به الجميع واحد من حيث التوحيد وعدم الاشراك بالله وتنزيهه تعالى وتقديسه وهو أعظم العبادة المطلوبة بل هو الاصل في النجاة الاخروية وهذه العبادة وما يتبعها من مراعاة الشرائع

والعمل بها بحسب المقتضيات الزمانية لم يكن شئ من ذلك البتة الا في مصلحة البشر انفسهم لان الله تعالى غني عن العالمين لا ينتفع بعبادة عابد ولا يضره كفر كافر ، فالرسل في البشر كالاطباء لانه كما احتاج الناس الى الاطباء لتطبيب ابدانهم وسلامتها من العطب احتاجوا كذلك وعلى شكل أعظم وأشرف الى اطباء النفوس من الرسل والنبيين لان أمراض النفوس شر من أمراض الابدان وهذا لا ينافي هداية العقول البشرية التي جعلها الله لها لانها معرضة للخطاء والضلال وهي تلتمس الحق لجهلها به فمن ثم احتاجت الى مرشد سموي يريها الهدى هدى والضلال ضلالا وبعد هذا الارشاد وذلك التبيين تصير غير معذورة بل تصير مسؤولة فيما أرشدت اليه في مصالحها الدينية والدنيوية

واذ كانت بعثة الرسل جائزة ولازمة كما هو مبين باكثر من هذا في كتب العقائد ومحققة بمن بعثهم الله تعالى من الرسل السالفين والانبياء المتقدمين وقد قامت البراهين والحجج على صدقهم وبالاستمداد من انوار شرائعهم استفادت الامم مؤمنة وغير مؤمنة ، واذ كان هذا الامر أمر بعثة الرسل

جارياً في سنن الخليقة ومسلما به لدى الآدميين في الجملة بالذي يجب اعتقاده بحكمهم على ما هو مفصل في كتب العقائد ، وإن كان لكل شيء عند الله وقته والسابق في علمه تعالى من حاجة البشر وافتقارهم الى تجديد الاصلاح ونصب أعلام التوحيد على أمتن أساس في الوقت الذي أراده واختاره سبحانه وتعالى لهذا بعث سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأشرف المرسلين بشريعة الاسلام محيياً للايمان منادياً بالاسلام في الزمن الذي انتقاه والوقت الذي اختاره مؤيداً بالحجج البالغة والمعجزات الباهرة ولا سيما معجزة القرآن المجيد الذي بيّن فيه حقيقة الايمان وهداية النفوس باحسن الاقوال واشرف المبادئ الادبية والاجتماعية واصول التوحيد بمقتضى قواعد عامة تصلح لكل زمان ومكان فلما جاء الرسول بهذا ولما قام من بشارات الانبياء السالفين به لهذا لزم الخلق تصديقه والايمان بما جاءنا به من عند الله للفوز بالسعادة الحقيقية الابدية على نحو ما بشر الله به المؤمنين الذين يستمعون القول من عند الله فيتبعون أحسنه ولا أحسن ولا أشرف ولا أوسط في اعتبارنا معشر المسلمين مما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فرسالة هذا النبي

الكريم والرسول السند العظيم جاءت نعمة عامة من الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » « وأرسلناك للناس بشيرا ونذيرا » (١)

***

أما السمعيات الواجب الاعتقاد بها وتصديقها من حيث الحشر والنشر وقد ورد بهما الشرع ومعناها الاعادة بعد الموت فهو في العقل ممكن لانه من مقدور لله تعالى ولان فيهما الجزاء الحقيقي والحياة الصحيحة بعد مجاوزة عقبتها من الموت قال تعالى « كما بدأنا أول خلق نعيده » وقال تعالى « قال من يحي العظام وهي رميم قل يحيها الذي انشأها أول مرة » وقال عز من قائل « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » (٢)

ومن السمعيات الواجب التصديق بها سؤال الملكين في القبر فقد وردت به السنة وهو ممكن في نفسه إذ ليس

---

(١) يراجع في الفضائل الشفا للقاضي عياض وبالنسبة لتقرير امر الرسالة الجواب الصحيح لابن تيمية اه مؤلف (٢) يراجع تفسير الرازى والفصل لابن حزم في مسئلة الحشر والنشر والاعادة الخ اه مؤلف

يستدعي ذلك غير اعادة الروح الى جزء من اجزاء البدن التي يفهم بها الخطاب وعدم سماع الاحياء للسؤال هو كما لا نرى من النائم غير سكونه بظاهره مع انه قد يكون مدركاً بباطنه لآلام والذات قد يحس بها ويشعر عند تنبهه ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يرونه ولا يسمعون كلامه .

وعذاب القبر حق وقد جاء في الحديث ، القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار ، ولا يمنع منه تفرق اجزاء البدن مثلا في بطون السباع وحواصل الطير ونحو ذلك إذ المدرك للذة أو ألم العذاب من الانسان إنما هو جزء يعلمه الله من نفس الانسان

والميزان حق ويجب التصديق به . قال تعالى ، ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، وقال عز من قائل ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه الخ ، وكذا الصراط يجب التصديق به لورود الخبر به أما صفته وصفة الميزان فما لا يعلم حقيقتهما الا الله تعالى .

ويجب التصديق بالجنة والنار وانهما مخلوقتان قال تعالى

« سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين » وقال تعالى « ومثوى الكافرين النار » والآيات في الجنة والنار والجزاء بهما على الاعمال إن خيراً فالجنة ونعيمها وإن شراً فالنار وسعيرها كثيرة وكذلك الاحاديث للترغيب والترهيب « ذلك هدي الله يهدي به من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »[1]

---

(١) يراجع على هذا الفصل تفسير الرازي واحياء الغزالي والاقتصاد في الاعتياد له اه مؤلف